الملف

شوقي عشقوتي

"الحرب المتدحرجة" من غزّة... إلى طهران
صراع إيراني ـ إسرائيلي على الشرق الأوسط

الحرب التي انطلقت من غزة قبل اكثر من عام تدحرجت وكبرت مثل كرة ثلج، لتتحول، ومن الباب اللبناني، الى مشروع حرب اقليمية، وفي ظل تفاقم خطر المواجهة المباشرة بين ايران واسرائيل. انه صراع سياسي ديني بين مشروعين و"اصوليتين": الايرانية الاسلامية والاسرائيلية الصهيونية. صراع محموم على الشرق الاوسط تحكمه حسابات دقيقة وبدا يتفلت من الضوابط والخطوط الحمر

عندما اغتيل رئيس المكتب السياسي لحركة حماس اسماعيل هنية في قلب طهران (كان ضيفا مشاركا في حفل تنصيب الرئيس الايراني الجديد مسعود بزشكيان)، اتجهت الانظار الى الرد الايراني على هذا الاختراق الاستخباراتي الاسرائيلي الفاضح الذي ينتهك سيادة ايران و"كرامتها". لكن رغم هول ما حدث، وبعد ساعات على اغتيال القائد العسكري لحزب الله في الضاحية الجنوبية فؤاد شكر، لم تظهر ايران اي توجه ولم تطلق اي مؤشر فعلي وجدي للرد.

الاول، لانها تدرك ان استفزازها لدفعها الى الميدان العسكري رغبة من اسرائيل التي تثق بأن اي هجوم ايراني عليها، سيستدعي حتما تدخلا اميركيا. والقناعة الايرانية بان اسرائيل والولايات المتحدة سوف تغتنمان الفرصة لاستهداف المنشات النووية الايرانية، علما بأن الطرفين يؤكدان انهما مستعدان للجوء الى كل الوسائل لمنع ايران من الحصول على السلاح النووي.

والثاني، لأن طهران تسعى، مع انطلاق العهد الرئاسي الجديد، الى تحسين مستوى العيش للمواطنين الايرانيين ونوعيته، واي حرب مباشرة سيكون لها تأثيراتها على خططها. وبالتالي، فانها مستمرة في تحاشي كل ما من شأنه ان يبعدها عن هذه الغاية، وان يصيب اولوياتها، واولها المحافظة على النظام نفسه الذي اهتز اكثر من مرة في السنوات الاخيرة.

من هنا فان اندلاع حرب مباشرة رغم امتلاكها ترسانة صاروخية متكاملة ووكلاء قاموا لنصرتها عند الحاجة، سيعني القضاء على خططها التنموية وعلى برنامجها النووي وعلى الموقع الذي اقتطعته لنفسها في المنطقة.

مع اغتيال الامين العام لحزب الله السيد حسن نصرالله، بعدما سبقته ضربات اسرائيلية موجعة للحزب (تفجيرات وتصفيات)، وبعدما اتبع بعملية تهجير جماعي لسكان الجنوب وبفتح اسرائيل جبهة الجنوب البرية للتوغل وتغيير الواقع على

الارض تغير الوضع تماما وحدث تغيير في موقف ايران في اتجاه الذهاب الى الرد والانخراط في الحرب. هذه التطورات دهمت طهران واحرجتها وحشرتها في زاوية الخيارات الصعبة، وجعلتها تشعر ان استمرارها في سياسة ضبط النفس لم يعد ممكنا.

في الواقع، جاء الرد الايراني عبر هجوم "الوعد الصادق 2" ليشكل ردا على اغتيال نصرالله وليس على اغتيال هنية، ولاسباب ضاغطة بقوة. ولم يكن في امكان ايران ان تتجاهل حجم الضربة والخسارة التي تلقتها باغتيال نصرالله وما كان يمثله من مكانة مرموقة، وما كان يلعبه من دور قيادي في محور المقاومة على مستوى كل المنطقة، وما احدثه غيابه المفاجئ من صدمة كبيرة في اوساط الحزب والشيعة، ومن رد فعل لم يقتصر على رغبة الثار والانتقام من اسرائيل، وانما ذهب في جزء منه في اتجاه ايران لما اظهرته من ضعف وتقصير.

لم يعد في امكان ايران ان تتجاوز هذا الحدث الضخم، ولم يعد ممكنا السكوت وضبط النفس، والا فان ايران ترسل اشارة ضعف وتشجع نتنياهو اكثر على استضعافها وتوجيه ضربات اقوى ضد حزب الله لتدميره واخضاعه، فتصبح ايران هي الهدف التالي لاسرائيل، وهي في وضع مكشوف استراتيجيا على المستويين الاقليمي والدولي. وبالتالي، فان الهجوم الايراني على اسرائيل يكتسب في هذه الحال طابع الهجوم الوقائي والاستباقي، قبل ان تتمكن اسرائيل من حزب الله والتوجه، بعد غزة ولبنان، صوب ايران.

محللون وخبراء في شؤون ايران وسياستها الخارجية ومشروعها الاقليمي، يوردون هذه الملاحظات ردا على كل ما يقال ويشاع من تساؤلات وشكوك:

1- لا ترغب ايران في رؤية حرب اقليمية، ولا تريد الدخول فيها او الانجرار اليها، اذ لا ترى لها مصلحة في حرب كهذه تريدها اسرائيل وخططت لوقوعها، ومصلحتها تكمن في وقف الحرب الاسرائيلية في غزة وفي لبنان، والتي اثبتت فيها اسرائيل تفوقا تكنولوجيا واضحا وخرقا استخباراتيا واسعا ودعما اميركيا مطلقا. حرب غزة الاخذة في الاتساع تهدد مصالح وطموحات ايران السياسية الاستراتيجية، والاقتصادية الاستثمارية، اضافة الى تكلفة بشرية وخسائر اقتصادية مدمرة... حرب غزة اسرائيلية، لكن اي حرب مع ايران ستكون حرب اسرائيل والغرب معا. اسرائيل مستعدة اكثر من اي وقت مضى لمعركة كبيرة هذه المرة، ولا تزال الى اليوم الاساطيل البحرية رابضة ومستعدة للحرب الكبرى مع ايران في اكبر حشد تشهده المنطقة.

2- مع انتخاب بزشكيان، حققت القيادة الايرانية عدة اهداف وحاجات: الاولى اعادة ترتيب المعسكر المحافظ وتوازناته، اما الثانية فان رئيسا اصلاحيا يمكنه احتواء الشارع الغاضب من السياسات الداخلية والخارجية، اما الثالثة، فهي كيفية التعاطي مع تداعيات السابع من اكتوبر 2023، وخصوصا ان احتمال المواجهة المباشرة مع الولايات المتحدة وارد جدا، وهذا ما يتجنبه النظام

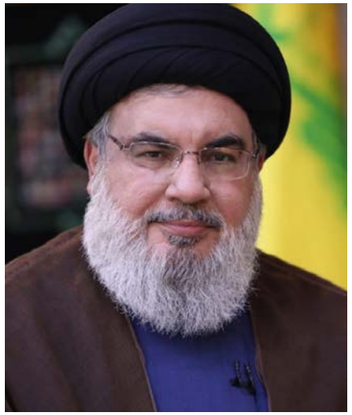

منذ تأسيسه، لذلك خيار تعويم محمد جواد ظريف يشكل جزءا من مخرج ضروري في مرحلة انتقالية متوترة داخليا وخارجيا.

3- يلعب الوضع الاقتصادي المتدهور دورا اساسيا في الموافقة الايرانية المبدئية على التفاوض. وبينما يشهد الشارع الايراني احتجاجات دورية في السنوات الاخيرة تقريبا، تصبح معالجة التدهور الاقتصادي اولوية قصوى لطهران.

4- انشغال ايران بترتيب ملفاتها مع الغرب لا يعني انها تركت حزب الله يخوض معركته وحيدا وكأنه متروك لقدره ومصيره. وبقاء ايران خارج المعركة الاسرائيلية الحالية، وهي الاشرس منذ سنة، لا يعني تخليها عن حزب الله باي حال من الاحوال.. ان القول بانفكاك عرى العلاقة بين ايران وحزب الله يعد تبسيطا ساذجا لهذه العلاقة الايديولوجية العملانية، "العضوية الابوية"...

اسباب كثيرة دفعت اسرائيل الى التفكير في الرد وتوجيه ضربة قوية لايران، من الوضع المشوش الذي تعيشه ايران، ومع حزب الله المضعضع، الى الدعم الاميركي الواضح سياسيا وعسكريا... الى

قرار اسرائيل الثابت في ضرب برنامج ايران النووي. ولكن اسرائيل التي اجمعت على توجيه ضربة قوية لايران ربما تستهدف منشاتها النووية في الدرجة الاولى، وعلى ان ايران باتت في وضع ضعيف، ارتفعت اصوات فيها تعكس حذرا وتدفع الى التفكير بالابتعاد من ضربة كهذه اولا: الخوف من نشوة مبالغ فيها في الجانب الاسرائيلي ومحاولة بلع اكثر مما هو ممكن دفعة واحدة، بينما الساحات الاخرى لا تزال مفتوحة، ولأن اسرائيل لا يمكنها ان تنفذ عملية كهذه وحدها، وسلوك ادارة الرئيس جو بايدن لا يوحي بأنها ستمنحها ضوءا اخضر او مساعدة فاعلة للهجوم، ولأن هذه ستكون رسالة بدء لحرب مفتوحة ضد ايران، ولانه ليس واضحا على الاطلاق مدى الضرر الذي يمكن لاسرائيل ان توقعه بالمشروع النووي الايراني، ويخيل ان هذا البند هو الاكثر حرجا. فمنشات النووي العراقية (1981) والسورية (2007) دمرتها اسرائيل تماما في هجوم واحد. اما ايران فقد تعلمت الدرس المزدوج ووزعت برنامجها النووي.

ورغم تهديدات اسرائيل المتواصلة، تشهد تل ابيب تحذيرات داخلية من عواقب الغرور والاستعلاء الذي قد يؤدي الى حسابات خاطئة وكوارث. وتعكس هذه التحذيرات المخاوف من ان تكون اسرائيل قد وقعت في "فخ الغطرسة"، كما اشار جدعون ليفي في صحيفة "هارتس"، مؤكدا ان المبالغة في الثقة قد تنتهي بكارثة. واضاف "في الخطاب الاسرائيلي، يتحدثون الان عن تغيير النظام هناك وحتى تصفية علي خامنئي، ويواجهون ترددا بين استهداف المنشات النووية او النفطية. اسرائيل تعيش حالة من الغطرسة، من قاع الانكسار بعد هزيمة 7 اكتوبر، والتي قارنوها بكارثة يهود اوروبا، الى ذروة الوقاحة في السعي لتغيير الانظمة ونقل الشعوب في كل ارجاء الشرق الاوسط. كل هذا خلال عام واحد. لكن هذه النهاية ستكون بالبكاء والدماء، لان طبيعة الغطرسة، كما هو معروف، هي انها تقود الى كارثة. ومن طبيعة التحركات المتطرفة كهذه، من كارثة متخيلة الى نصر متخيل، ان تنتهي بالانهيار".

هناك احساس قوي في واشنطن بأن نتنياهو الحالي هو غير نتنياهو الذي كان في الشهور الاولى عقب 7 اكتوبر. نتنياهو الجديد يشعر منذ سبعة اسابيع بفائض قوة لنجاحاته في المماطلة لشراء الوقت ◄

MGM
CAPITAL
EXCELLING IN REAL
INVESTMENTS
PORTSIDE

◄ والوصول الى اعتاب اسابيع قليلة من حسم معركة الرئاسة الاميركية لأنه يدرك ان واشنطن الحالية هي في ظل رئيس معطل لاسرائيل، ونائبته ومرشحته في حاجة الى الصوت اليهودي والدعم الاسرائيلي، وترامب هو الصديق الاستراتيجي لاسرائيل. بعد مرور عام على الحرب، اصبح جليا ان نتنياهو كان يستهلك الوقت ويستعمل واشنطن لتقطيع المرحلة من خلال طروحات وافكار، فيما هو لم يرغب في يوم من الايام في عقد صفقة تسوية، وهدفه تحقيق نصر كامل على حماس. حتى ان افكار اليوم التالي لمن يريد ان يدير ويحكم غزة ومستقبل عملية السلام كانت تدريبا افتراضيا للاستهلاك الديبلوماسي.

يرى محللون ان نتنياهو يحاول ان يسوق سياسته للاميركيين على النحو التالي:

1- هذه ليست معركة او جولة، لكن ما يعرف بالانكليزية game changer. لذلك كان الاسم الكودي لعملية اغتيال السيد حسن نصرالله: عملية "النظام الجديد".

2- اضعاف الحزب هو اضعاف للوكلاء، واضعاف الوكلاء هو اضعاف لايران. وايران الضعيفة يجعلها اكثر سهولة واكثر تطويعا في الضغط عليها.

في المفهوم الاسرائيلي الليكودي، ليس من مصلحة الدولة العبرية الان انجاز اي اتفاق على جبهتي غزة او جنوب لبنان. بالمفهوم الليكودي، لا يمكن التفاوض مع حماس وحزب الله الا بعد تحطيم آلتهما العسكرية وجلبهما الى طاولة المفاوضات ليس لاتفاق سلام لكن لوثيقة استسلام.

يحاول نتنياهو في هذا المسعى لجر اميركا معه الى الحرب مع ايران، ان يوظف الخدمات الكبيرة التي قدمها للادارة الاميركية لدعم طموحه في توجيه ضربة مباشرة لايران، انطلاقا من رؤيته التي تقوم على ان بقاء ايران بعيدة من المواجهة المباشرة وعدم اجبارها على دفع ثمن دعمها للقوى المتحالفة معها والموالية لها في الاقليم سيفشلان تنفيذ المشروع الذي يطمح له ببناء "شرق اوسط جديد".

تذهب رهانات نتنياهو الى ابعد مما لدى الاميركي، وطموحاته تتجاوز ايضا ما لدى واشنطن. فهو لا يريد او غير قادر على التعايش مع اي صيغة مخففة للنظام الايراني باعتبار هذا النظام ومشروعه هما النقيض النوعي لمشروع اسرائيل الكبرى، الذي يريد تاسيسه ورفع خريطته من على منبر الامم المتحدة، ووضع المنطقة ودولها امام واحد من خيارين: اما ان تكون في "المحور المبارك" او يخضعوا امام "محور الشر" الذي تقوده ايران.

كان نتنياهو واضحا من اليوم الاول لعملية طوفان الاقصى، عندما حمّل طهران المسؤولية المباشرة عن العملية التي قامت بها حركة حماس وما ادت اليه من نتائج. اعتبر يومها ان الرد على هذه العملية يجب ان يبدأ بضرب الرأس الكامن في طهران، فيسهل القضاء على اذرعه الاقليمية وانهاؤها والتخلص من اي تهديد مستقبلي قد تشكله، اي ان ضرب طهران يسهم في اعادة ايران الى داخل حدودها وجعلها مشغولة بنفسها وازماتها، وبالتالي تحويلها الى دولة غير قادرة على اللعب بالمعادلات الاقليمية والتاثير عليها وفيها.

يعتقد محللون اسرائيليون ان على اسرائيل بناء ائتلاف اقليمي وعقد اتفاقيات تطبيع جديدة، تقودها الولايات المتحدة وترعاها، غير ان الشرط لتحقيق ذلك، كما يحدده، هو ان تحقق اسرائيل انتصارا واضحا في هذه الحرب. واذ لا يمكن لـ"الانتصار الساحق" ان ينجز من دون دخول اسرائيل في مواجهة مباشرة مع ايران، فان سيناريو حرب اقليمية شاملة ليس جزءا من اهداف الحرب، لذلك يتخبط صناع القرار في اسرائيل بشأن اهداف الضربة المتوقعة لايران، وخصوصا ان واشنطن غير معنية بتوجيه ضربة الى منشآت نفطية او نووية، وفق المحلل العسكري لصحيفة "يديعوت احرونوت" يوسي يهوشواع. ومع ذلك، يشير يهوشواع الى ان الجهات الاستخباراتية في اسرائيل ترصد فرصا لقلب قواعد اللعبة في الشرق الاوسط، في ضوء نتائج ما خلفته الضربات الموجهة الى حزب الله، وهي قواعد تتعلق بالدول السنية التي باتت تظن ان في الامكان استغلال ذلك لفصل سوريا عن حضن ايران. لكن في اسرائيل لا توقعات ولا رهانات على قيام ائتلاف اقليمي جديد، بدأ الحديث عنه بعد الهجوم الايراني على اسرائيل، ويتمحور حول "عدو مشترك" لدول المنطقة وهو ايران. الاعتقاد السائد في اسرائيل هو انه على الرغم من ان غالبية دول المنطقة ترى في ايران عدوا اخطر من اسرائيل، فانه ليس هناك حاكم عربي يخاطر بالحديث عن هذا علنا، الامر الذي يعرضه الى تهديد مباشر من طرف طهران، او يؤلب الجماهير ضده التي تواصل اظهار عدائها العميق لاسرائيل. والعكس هو الصحيح، فاغلبية الحكام في المنطقة يواصلون سياسة المصالحة مع طهران، انطلاقا من الفهم القائل انه من الافضل التحاور معها بدلا من الاعتماد على الولايات المتحدة في استئصالها. وفي ما يتعلق باسرائيل، فان عليها ان تدرك، كما في مسالة التطبيع مع السعودية، انه سيكون من الصعب نشوء ائتلاف طالما هناك عقبات في الموضوع الفلسطيني، وفي طليعتها الحرب في غزة، والجمود في العلاقات مع السلطة الفلسطينية.

مع تبدد النشوة التي سادت بعد احباط الهجوم الايراني، فان اسرائيل ستجد نفسها في مواجهة مشكلتين استراتيجيتين يجب حسمهما في اقل من نصف سنة: الصراع ضد حماس ومسألة المخطوفين، والواقع الناشئ في الشمال. ان الانجاز الذي تحقق لم ينعكس في اي من هذين التحديين، وطبعا لم يؤد الى اختفائهما. علاوة على ذلك، من الضروري ان تفهم اسرائيل ان المواجهة اندلعت بعد ان فشلت مرة اخرى في قراءة نيات الاخر، وهذه المشكلة تبرز الان عبر الاعتقاد الاسرائيلي ان طهران تعيش شعورا بالفشل (بينما الوضع هو العكس)، وان الدول العربية السنية متحمسة لتشكيل ائتلاف ضد طهران.